خطبة صلاة الجمعة 4/10/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

"لا تجزع إذا تأخرت الإجابة"

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِه الله فهو المهتَد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ , [غافر: 60].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ , [يونس: 88], قال ابن جريج: يقولون: (إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة).

وقال سبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ , [الأنبياء: 87، 88].

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: **((أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني))**, [أخرجه مسلم].

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **((إن الله تعالى ليستحيي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردّهما خائبتين))**, [أخرجه أحمد].

عنوان خطبة اليوم:

"لاتجزع إذا تأخرت الإجابة"

هذا العنوان أورده "ابن الجوزي" في كتابه النافع "صيد الخاطر"، أحببت أن أختصر لكم ما ورد تحت هذا العنوان, متمماً فوائده, وشارحاً غامضه, ومجيباً على مايرد في خاطر أخ فينا أو أخت:

- لماذا لم يستجب ربنا لنا الدعاء في رفع هذا البلاء؟
- ولماذا لايسرع الله نقمته في الظالمين؟
- ولماذا تدعو أمٌّ بنجاة ولدها من هلكة, فلاينجو؟
- ويدعو ابن بعودة أبيه سالماً, فيتأخر الجواب؟
- لماذا يجوع المؤمن ويشبع الفجّار؟
- ولماذا يُعافى العصاة ويمرض المتقون؟

يقول ابن الجوزي: (رأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يُجاب، فيكرر الدعاء وتطول المدة، ولا يرى أثراً للإجابة، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر.

وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب.

ولقد عرض لي من هذا الجنس؛ فإنه نزلت بي نازلة فدعوتُ فلم أرَ الإجابة، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده.

فتارة يقول: الكلام واسع, والبخل معدوم, فما فائدة تأخير الجواب؟

فقلت له: اخسأ يا لعين, فما أحتاج إلى تقاضي, ولا أرضاك وكيلاً.

ثم عُدْتُ إلى نفسي فقلتُ: إياكِ ومساكنةَ وسوستِه, فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك الله في محاربة هذا العدو لكفى في الحكمة.

ثم قلت لنفسي: إياك والجزع **إذا تأخرت الإجابة، فإن تأخرها لأسباب:**

أولها: قد ثبت بالبرهان أن الله عز و جل مالكٌ، و للمالك التصرفُ بالمنع والعطاء, فلا وجه للاعتراض عليه.

والثاني: أنه قد ثبتت حكمة المالك جل جلاله بالأدلة القاطعة، فربما رأيتِ الشيء مصلحةً والحكمةُ لا تقتضيه، فتأخرت الإجابة حتى يوافق الشيءُ المطلوبُ الحكمةَ.

وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر؛ يقْصِد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحةً والاستعجالُ مضرةً، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾, [البقرة: 216].

الرابع : أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفةٍ فيكِ, فربما يكون في مأكولِكِ شبهةٌ، أو قلبُك وقتَ الدعاء في غفلة, أو تزَادُ عقوبتُك في منعِ حاجتِك لذنبٍ ماصدقتِ في التوبة منه.

روي عن بعض الصالحين: أنه نزل بعض الأعاجم في داره يريد غصبها منه، فجاء صاحب الدار فوقف بباب الدار، وأمر بعض أصحابه أن يدخل الدار ويقلع طيناً جديداً؛ كان الرجل الصالح قد طيّنه، فدخل فقلع الطين، فقام الأعجمي وخرج، فسئل الرجل الصالح عن ذلك فقال: (هذا الطين من وجه شبهة, فلما زالت الشبهة زال صاحبها).

والخامس: أنه ربما كان فَقْدُ ما فقدتِيه سبباً للوقوف على الباب, واللجأ إلى الله، وفي حصوله سبباً للاشتغال به عن المسؤول.

وإنما البلاء المحض ما يشغلكِ عنه, فأما ما يقيمكِ بين يديه ففيه كمالك.

حكي عن يحيى البكاء أنه دعا ربه: يارب كم أدعوك ولا تجيبني؟ فكأنه سمع: يا يحيى إني أحب أن أسمع صوتك.

وإذا تدبرتِ –يا نفس– هذه الأشياء, تشاغلتِ بما هو أنفع لك من حصول ما فاتَكِ: من رفع خللٍ, أو اعتذارٍ عن زلل, أو وقوفٍ على الباب راجيةً من رب الأرباب).

أيها الإخوة:

دعا موسى على فرعون, وأمّن هارون على دعائه, فأهلك الله فرعون بعد أربعين سنة، فكن موسوي الصبر.

طلب يعقوب من الله ولده يوسف بعد فقده, فجمعه به بعد عشرات السنين، فكن يعقوب العصر.

مرض أيوب –عليه السلام– وسأل ربه أن يشفيه, فبرَأَ بعد أعوام طوال، فكن أيوب الدهر.

آذى أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول يوم في الدعوة, فأمهله الله إلى بدر.

فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل.

ومع تأخر الإجابة لم يجزع الأنبياء, ولم يضجر الأولياء, بل زادهم إيماناً ورضى, فظهر معنى قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾, [المائدة: 119].

قال ابن عطاء الله الاسكندري: (لا يكُنْ تَأخُّرُ أَمَد العَطاء مَعَ الإلْحاح في الدّعَاءِ موجبَاً ليأسِك, فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ لا فيما تختاره لنَفْسكَ، وفي الوقْتِ الذي يريدُ لا في الوقْت الذي تُريدُ).

وعن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **((ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها أثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: أما أن تعجَّل له دعوته واما أن يَدّخرها له في الآخرة واما أن يصرف عنه من السوء مثلها))**, قالوا: إذاً نكثر, قال: **((الله أكثر))**, [رواه أحمد].

وروى الإمام مسلم بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **((لا يزَالُ يُسْتَجابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بإثم أو قَطِيعَةِ رَحِمٍ, ما لم يستعجلْ))**، قيل: يا رَسول الله، ما الاستعجال؟ قال: **((يقول: قد دعوتُ، وقد دَعَوتُ, فلم أرَ يستجيب لي، فَيَسْتَحْسِرُ عند ذلك، ويَدَعُ الدعاءَ))**, [يستحسر: يعني ينقطع عن الدعاء, ويستنكف].

أيها الإخوة:

الأيام القادمات تطالعنا بلياليِ العشر، ليالي المناسك وأيام المشاعر، وهي نفحة من نفحات الله، مناسبة جداً لتوبة من شرد, وعودة من بَعُد, وحَثِّ الخطا لمن اجتهد.

بها الرحمن في القرآن أقسم ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ , [الفجر: 1، 2], وعن عظيم فضلها أخبرنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: **((ما مِن أيام العملُ الصَّالِحُ فيهنَّ أحبُّ إلى الله من هذه الأيام العَشْرِ))**، فقالوا: يا رسول الله، ولا الجِهادُ ؟ قال: **((ولا الجِهادُ ، إلا رجل خَرجَ يُخاطِرُ بنفسه ومَاله، فلم يرجع بشيء))**, [أخرجه البخاري والترمذي].

فتعالوا نكثر فيها الدعاء والالتجاء، نصوم نهارها ونقوم ليلها، نُكْسِب المعدوم, ونصل الرحم, ونحمل الكَلَّ, ونقري الضيف، نفكَّ العاني, ونطعم الجائع, ونعين على نوائب الحق, نستعجل بذلك الفرج من الله.

روى ابن كثير في تفسيره والطبراني في الكبير عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري، وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً: "بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **((إن لربكم في بقية دهركم نفحات، فتعرضوا لها، لعل دعوةً أن توافق رحمةً, فيسعد بها صاحبُها سعادةً لا يخسر بعدها أبداً))**".

والحمد لله ربِ العالمين